

كلمات كُتبت في رثاء الفقيد كلمة السيدة مدير جامعة الخرطوم أ.د. فدوى عبد الرحمن علي طه

تنعي مديرة جامعة الخرطوم ببالغ الحزن والأسى؛ الأستاذ عباس الزين، الموظف بمكتبة السودان، الذي انتقل إلى جوار ربه عصر اليوم السبت الموافق لثاني من مايو 2020م. عمل عباس بالمكتبة طويلاً وحفظ مواقع كتبها وحافظ عليها. تفانى عباس في خدمة رواده وخرَّج أجيالاً من الطلاب والباحثين. وكانت المكتبة أسرته الكبيرة والصغيرة. ولم يقو على فراقها، فعندما أُحيل للتقاعد فضّل العمل دون أجر مواصلة لعطاءه. عباس شخص نادر وعفيف قلٌّ أن يجود الزمان بمثله. نسأل الله أن يتغمّده برحمته ويصبرنا على فراقه.

وأضافت قائلة في حسابها على تويتر: «عباس الزين الطيب حارس الكتب والمعرفة الأمين.. كنت إنساناً متفرداً يا عباس. لك الرحمة والمغفرة وليبادي، وربنا إقدّرنا على دخول مكتبة السودان».

في ذمة الله عباس الزين

بقلم أ.د. عبد الله محمد أحمد - كلية الآداب - جامعة الخرطوم

روحٌ فاضت إلى بارئها في الشهر المبارك وروضةٌ ذُبلت أزهارها ودوحةٌ
سكتت أطيّارها فلا غرو أن تعجّبت الشاعرة من تلكم الشجرة المورقة:
أيا شجرَ الخابور مالكٌ مُورقاً كأنك لم تحزنْ على ابنِ طريفٍ
إنني ليحزننني أن أدخلَ مكتبة السودان فأرى موضعَ عبّاسٍ منها خالياً،
فمكأنه منها مكانُ القطبِ من الرّحى. اتصل بي قبل ساعةٍ من الزمان
العالم الجليل بروفسير إبراهيم الزين صغيرون فعزّاني وعزّيته في هذا الفقدِ
الجلل فقد كانت فجيعَةٌ أهل العلم فيه كفجيعَة أهله فيه. وقد وصفه بكلِّ
وصفٍ جميل فهو مثالٌ نادرٌ للوفاء في أدائه لعمله وفي عشقه للكتاب فما
ذُكرَ عبّاسٌ رحمه الله إلا وذُكرَ الكتابُ فبينهما رجمٌ وأشجة. يهونُ عنده
النصبُ ويتناسى الأسقام في سبيل خدمة أهل العلم. فطالما سَفَرَ بين الكُتبِ
والدارسين، فقد كان اسمه على لسان كلِّ باحثٍ في تاريخ السودان وتراثه وأدبه
من داخل السودان وخارجه. يكفي أن تذكر له اسمَ الكتاب حتى تجده بين
يديك فقد كان يحفظُ موضعَ كل كتاب في المكتبة أو تذكر الموضوع الذي تبحث
فيه فيأتيك بكل ما كُتبَ فيه من ثمراتِ العقول. فذاكرته أرشيفٌ ضمَّ كلَّ
ما حوته المكتبة من كتبٍ ومجلاتٍ ورسائلٍ جامعية، من كلِّ ما جادت به
ألسنة الأقلام من أفواه المحابر. رجلٌ حبّب الله تعالى الخيرَ إليه وحبّبه
إلى الخير. كثير الفعّال نزرُ المقال جميلُ الخصال عزيزُ المثال.. خدم مكتبة
الجامعة لأكثر من خمسة عُقود بروح لا تعرفُ الكلالَ ولا يعترئها الملال.
نسيته الجامعة زماناً طويلاً ثمّ تداركت بعضَ ما فات منها فجاء تكريمه
على يد السيدة الفضلى بروفسير فدوى عبد الرحمن مديرة الجامعة في آخر
أيامه رحمه الله تعالى. أنزل الله تعالى على قبره من شآبيب رحمته ما
تخضّر له تربةُ الجدث وتُضيء له ظلّمات الرّمس.

الأستاذ النبيل عباس الزين (ت. ٢ مايو ٢٠٢٠م):

ترك مقعده شاغراً بمكتبة السودان جامعة الخرطوم

أ.د أحمد إبراهيم أبوشوك- جامعة قطر - قطر :

ارتبط اسم الأستاذ عباس الزين بمكتبة السودان، جامعة الخرطوم، حيث قضى خمسة عقود من عمره النضير في خدمة المكتبة وزوارها من الأساتذة والباحثين والطلبة، ولذلك وصفه الدكتور خالد محمد فرح بـ«عاشق الكتاب، وسادن المعرفة»، ونعته الدكتور إبراهيم الزين صغيرون بأنه «مثال نادر للوفاء في أدائه عمله». هكذا كان عباس يسمو فوق هذه الصفات بتواضعه الجَمِّ، وأدبه الرفيع، وتفانيه في العمل، بل بنكران ذات عجيب. كانت المكتبة تعني له الزوج، والأسرة، والجليس الصالح؛ لذلك اترحل عنها إلى الدار الآخرة دون أن يقترن بشريك حياة غيرها، بل ترك سجلاً حافلاً شكر الباحثين والطلبة وعرفانهم إليه، لأنه كان يساعدهم بسعة صدر، وطيب خاطر مفعم بالوفاء والإحسان. ويرجع تاريخ تأسيس المكتبة التي عمل الأستاذ عباس الزين في كنفها وعشقها حتى الثمالة إلى عام 1961م، عندما قررت إدارة جامعة الخرطوم إنشاء مكتبة، تهتم بشؤون السودان، وتجمع كل ما كُتِب عنه، فأطلقت عليها اسم مكتبة السودان. وكانت عملية التأسيس على يد الأستاذ القدير في علم المكتبات عبد الرحمن النصري، وأعانته في ذلك نفرٌ من العاملين في مجال علم المكتبات وإدارتها، أمثال الأستاذ قاسم عثمان نور، الذي عمل بمكتبة السودان في الفترة 1965 إلى 1980م، ولا حقاً الأستاذ عباس الزين. وبعد إصدار قانون إيداع المصنفات لعام 1966 وتعديله لعام 1971م، أصبحت مكتبة السودان الحاضنة الأولى للمطبوعات التي تصدر في السودان، بما في ذلك الكتب، والرسائل الجامعية، والصور الفتوغرافية، والخرائط، والتقارير الحكومية، والاتفاقيات السياسية، وأوراق المؤتمرات، والصحف والمجلات، فضلاً عن الكتب التي تصدر خارج السودان. ولذلك وصفها قاسم عثمان نور بذاكرة الوطن، بحكم أنها أكبر وأغنى مكتبة للأدبيات السودانية في داخل القطر وخارجه. وكان استخدام مكتبة السودان قاصراً على أساتذة الجامعة والباحثين وطلبة الدراسات العليا، لإفادة من نظام الرفوف المفتوحة للحصول على المادة

التي يبتغيها كل باحث، وكانت الرسائل الجامعية توضع في خزائن أو رفوف مغلقة؛ أما طلبة البكالوريوس فكانوا يحصلون على مقتنيات المكتبة عن طريق الإعارة الداخلية في المكتبة الرئيسية. وظلت مكتبة السودان منذ تاريخ تأسيسها في العام 1961م كائنة في الطابق الأول، والركن الجنوبي الغربي لمباني كلية غردون (مكتبة جامعة الخرطوم الرئيسية لاحقاً). وفي العام 1994م تمّ ترحيل مقتنياتها إلى أحد مباني جامعة الخرطوم المطلّة على شارع الجمهورية (مبنى داخلية بحر الغزال سابقاً).

لعمري لم أجد مثيلاً لمكتبة السودان في القطر كله، ولا شبيهاً للأستاذ عباس الزين إلا صديقه الأستاذ سيد مصطفى (سيد بن ريا) بدار الوثائق القومية، فإنهما كانا يشتركان في صفات كثيرة، منها التفاني في العمل، وحب الوظيفة، وحفظ مقتنيات المؤسسة التي ينتمي كل واحد منهما إليها، فضلاً عن مساعدة الطلبة والباحثين. وفوق هذا وذاك مات كل واحد منهما من غير شريك في الحياة إلا مكتبة السودان من طرف، ودار الوثائق القومية من طرف آخر؛ ألا رحم الله عباساً وسيداً بقدر ما قدما للبحث العلمي والباحثين، وبقدر إخلاصهما وتفانيهما في العمل.

عباس الزين الطيب (مكتبة ورحلت)

أ.د. عبد اللطيف البوني - الجامعة الوطنية

(1)

بإيعاز من أستاذي الجليل الراحل / محمد سعيد القدال قررت أن يكون بحثي للتخرج من الجامعة (حركة مزارعي الجزيرة) ويومها كانت المادة المكتوبة عن مشروع الجزيرة نادرة جداً كأنما هناك جهة تريد أن يبقى هذا المشروع بعيداً عن التناول الأكاديمي والمجتمعي، وهذه قصة أخرى. فكان لا بد من الذهاب لمكتبة السودان، وهي جزء من مكتبة الجامعة العامة، جمع فيه كل ما كُتب عن السودان من رسائل ومدونات وكتب وصحف، ولكنها كانت مخصصة لطلاب الدراسات العليا، ولا يمكن لطلاب البكالوريوس الاستفادة منها إلا بإجراءات معقدة تبدأ بإفادة من الكلية ثم يُقدم الطلب لأمين المكتبة، وبعد الموافقة تكتب المرجع الذي تريد لتأتيك في المكتبة العامة. ولما كان بلدياتي وصديقي الراحل محمد الشيخ إدريس (طه الجاك) موظفاً في المكتبة لجأت إليه فقال لي اعتبر الموضوع منتهي لأن المسؤول المسائي عن المكتبة صاحبنا عباس الزين، وهو زول متعاون جداً وشغوف بالمعرفة.

(2)

كان ترحيب عباس بي فوق كل تصور فذهب لمكتبة الشنقيطي، وهي أيضاً مخصصة لجلوس طلاب الدراسات العليا، ولكن بها متسع، واستأذن ملازم المكتبة كي أجلس هناك ولم يحوجني لأي كشف لأنه يعرف كل ما في المكتبة عن الجزيرة، فاقترح علي أن أبدأ بالزراعة في السودان، فأحضر لي سفر توتهيل الضخم وبعده كتاب آرثر جتسيكل (الجزيرة قصة تنمية)، وكانت توجد منه نسخة واحدة، ثم رسالة دكتور عبد الوهاب عبد العزيز المبارك، فكانت كتب ومراجع ما كنت أحلم بها. وكنت متخيلاً أن هذه معاملة خاصة لي نسبة لوساطة محمد الشيخ إدريس، ولكنني اكتشفت أن كل المجموعة (الملبدة) في مكتبة الشنقيطي أتت بها عباس، فهو لا يريد أن يخرق اللوائح بإدخال طلاب البكالوريوس في مكتبة السودان، وفي نفس الوقت يريد أن ييسر على الطلاب ويختصر الإجراءات المطولة، وهذا يكلفه مشاوير وجهداً ورهقاً. وكان كل واحد منا يظن أن عباس يخدمه بصورة خاصة، ولكننا أيقنا أن هذا ديدنه مع كل باحث.

(3)

من أرض المحنة، من الجزيرة ومن القسم الشمالي فيها، تحديداً من قرية (حلة عباس) الوداعة التي تتوسط الحواشات المخضرة؛ جاء عباس الزين الطيب. وهي ذات القرية التي أعطت السودان؛ ملك الأداء وسلطان الطرب و(قائد أسطول) الغناء الشعبي وسادن الحقيبة صاحب الصوت الذي هز كل السودان (من اليمن للشام) بادي محمد الطيب، وهو ابن عم عباس لزم وعملاً معاً في جامعة الخرطوم، وتساكنا كعزابة مع رهط من أهل قريتهم بالعباسية بأم درمان. لا بل في بواكير شبابه عمل معه عباس ككورس، وأحياناً ضابط إيقاع. أكاد أجزم أنني لم أصادف في حياتي شخصاً محباً لوظيفته متفانياً فيها مثل عباس الزين. ولعل هذا بشهادة كل من مرّ بمكتبة السودان، ومن مختلف المستويات، بكالوريوس ماجستير دكتوراه ومؤلفين ومسؤولين. فعباس كان متجاوزاً لمهنته الرسمية، إذ كان سرعان ما تنمو بينه وبين طالب الخدمة مودة وصدافة بعبارة أخرى أنه يقدم الخدمة بمحبة. وبالطبع هذا يرجع لفطرته السمحة، ولحبه للبحث والباحثين. ومن أراد أن يستوثق من ذلك فليذهب إلى مكتبة السودان ليجد في صفحة الشكر من كل رسالة اسم عباس الزين متحكراً فيها.

(4)

منذ وقت بحث التخرج توطدت صلتني بعباس الزين وظللت على تواصل معه، بيد أنه في السنوات الأخيرة كنت لا أقابله إلا خطفاً، وفي كل مرة أقابله فيها كان يطلب مني أن أمد المكتبة بما نشرته من كتب (ياخي سمعت أنك طلعت حاطب ليل في مجلدات، من فضلك أدينا نسخة لمكتبة السودان، ياخي أنا مستعد أجيك في أي مكان عشان أشيلها منك) (تجيني يا عباس بالموريس ماينربتاغتك المن سنة حفروا البحر ديك؟) يضحك (ياخي الله يطرك بالخير، انت من زمن الموريس ماينر.. لكن والله من شدة ما صبرت عليها الجماعة لقبوني بسيدنا أيوب) (يا عباس والله انت سيدنا أيوب في كل تفاصيل حياتك، ياخي ما كفاية صبرك على العزوبية) يضحك (نعمل شنو عاد ياهو قدرنا) (تعرف يا عباس انت ربنا أدك الكثير، أدك الظرافة والأناقة والوسامة والأدب والطول الفارع والشعر السببيي والصبر والتفاني في خدمة الآخرين، لكن ما ممكن يدك كل شي كمان) (انت نسيت الشلوخولاشنو؟) (والله حتى شلخك مخالف من سماحته).

(5)

لقد شق عليّ نعي عباس الزين الذي طارت به الأسافير في الأسبوع قبل الماضي، إذ تناقله محبوه وعارفو فضله، وما أكثرهم على امتداد السودان وخارجه، إذ يندر أن تجد باحثاً أكاديمياً في الدراسات الإنسانية لم يمر على مكتبة السودان. فقد كانت إلى وقت قريب مستودع المعرفة الوحيد بالسودان. وكان كل من ينعي عباس يعتبره صديقاً خاصاً. بصفة خاصة لقد أحزنني نبأ رحيل عباس، لأنني لم ألتقه في السنوات الأخيرة. كما أن النبأ هيج في نفسي لواعج الذكرى، فتذكرت صديقي وصديقه محمد الشيخ إدريس (طه الجاك) الذي غادر هو الآخر هذه الفانية مثل عباس بكل هدوء مثلما دخلها ولم يترك مالاً ولا عقاراً ولا ولداً، إنما محبة الناس فقط.

كان عباس موظفاً في الخدمة المدنية مثله مثل آخرين كثر، ولكنه كان يمتاز بأن طبيعته وظيفته جعلته في خدمة العلم والعلماء، وتحديداً في مجال المعرفة بالسودان بكل تفاصيله. ونشهد بأنه قد أداها بمحبة وتفان، لذلك نعتبره شخصية قومية بامتياز. فالدور والباقي على جامعة الخرطوم أن تبادل وفاء عباس بما يستحق، ونرفع هذا الأمر إلى صديقه وعارفة فضله وصديقتنا البروفيسور فدوى عبد الرحمن علي طه مدير الجامعة. اللهم أرحم عبدك عباس الزين وأسكنه الفردوس الأعلى مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً. وصادق تعازينا لأهلنا وأحبابنا بحلة عباس.

رحل العم عباس الزين الطيب - لقد انطفاً قنديلاً كان يضيء حناس المعرفة:

د. محمد الفاتح حياتي - قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة الخرطوم

الحمد لله القائل وهو عز من قائل: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ». والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على من كان رحيله إلى الرفيق الأعلى تمحيصاً لأهل الإيمان.

عند الأصيل من السبت، الموافق للثاني من مايو من العام 2020م رُزئنا أيما رزء بفقد كريم الأصل والخصال، عزيز النفس، جميل الصفات؛ العم الأستاذ عباس الزين الطيب عبد الله. لم يكن رحيله فاجعة على الأهل والعشيرة فحسب، بل كان صاعقة أصابت الأوساط العلمية والبحثية، إذ نعاها الناعون وبكوه بالدمع البديد والحرقة التي أصابت مقتل أحبائه وزملائه وكل من يعرفونه.

لم يكن الأستاذ عباس الزين مجرد شخص يؤدي واجبه كمثال لنظام الخدمة المدنية الحقّة، بل كان يحسن العمل وزيادة، لقد كان العم عباس إنساناً تتجسد فيه معاني الإنسانية بمعنى الكلمة. لا أقول إنه كان يساعد الصغير قبل الكبير والغريب قبل القريب، لكنه كان يزيد على ذلك بشاشة وطلاقة وجه وإحسان وتفان في العمل والمساعدة.

يُعد العم عباس ركناً ركيناً من أركان مكتبة السودان بجامعة الخرطوم، بل إن مكتبة السودان هي عم عباس، فعندما ننوي الذهاب إليها، لا يتبادر إلى أذهاننا إلا ذاك الشخص البشوش الذي يبذل روحه لأن يجد لك ما تطلبه من المصادر المتعددة التي يحفظها هو عن ظهر قلب. ولا تكاد تسأله عن كتاب إلا ويكون قد عرف محتوياته قبل موضعه في أضاير المكتبة، فهو خازنها وصادنها لخمسة عقود من الزمان. وقد خلق اهتمامه بالمكتبة علاقة بينه وبين الكُتّاب والباحثين في مجالات السودانويات بمختلف توجهاتهم، إذ كانوا يهدون المكتبة إنتاجهم العلمي بشكل ثابت، وكانوا على تواصل مع العم عباس بصورة شخصية لما لمسوه فيه من دماثة الخُلق وشغفه بالمكتبة وإثرائها بما تحتاجه من كتب، زيادة على بذل الجهد لجلب الجديد من المطبوعات، فكثيراً ما كان يجتهد بصورة شخصية ليلبي رغبات القراء والباحثين وإحضار ما يحتاجونه من كتب لا تتوفر في المكتبة. وقد كان عنده برنامج ثابت، وهو أنه بعد أن يكمل عمله اليومي، يذهب إلى السوق العربي أو سوق أم درمان ليقف الساعات الطوال أمام الكتب المعروضة على الأرض، لعله يجد فيها ما تحتاجه المكتبة، إذ تعد الكتب المعروضة في الرصيف ثروة هائلة لا يعرف قدرها إلا أهل

الشغف بالعلم الذين يسبرون أغوارها ويتابعون جديدها. فمكتبة السودان؛ هذه المكتبة العظيمة تعد ملاذاً للباحثين في مجال الدراسات السودانية بشتى ضروبها، إذ بُنيت حلقات وصل متينة بين أضلاع المثلث الثلاثة؛ عمي عباس والمكتبة والذين يرتادونها طوال حياتهم البحثية. فقد كان العم عباس شماساً يدير كؤوس الراح على الندامى في حانات المعرفة بكل أدب وتهذيب. وقد ارتبط عند الباحثين بعقب الكتب القديمة التي تملأ المكتبة، فلا تكاد تدخل المكتبة وتنشق عبر الكتب الذي يقابلك عند المدخل إلا وروحك تتطلع إلى رؤية العم عباس وسماع صوته الهادئ الحاني. وقد كان يعير صغار الباحثين وطلاب البكالوريوس ليروي بنفسه بذرة تراكمهم المعرفي، لأنه يتأملهم بنظرة ثاقبة ترنو إلى المستقبل الواعد فيرى فيهم علماء المستقبل وسادة المعرفة. ومنذ أن وطئت قدمي سوح جامعة الخرطوم؛ وجدت في العم عباس خير معين وسند، فقد شارك مشاركة ثرة في إعدادي المعرفي منذ أن كنت في مرحلة البكالوريوس، فكلما ذهبته إليه في المكتبة أو حادثته هاتفياً إلا وأشبع روحي بما أريد من المراجع المهمة، وإذا لم يجد ما أريد في المكتبة كان يقول لي: «خليبيشوفو ليك في السوق العربي عند الفراشة، يتلقي إن شاء الله». أي إنسان هذا وأي روح طيبة هذه.

أما على صعيد التواصل والتراحم الاجتماعي فلن يستطيع أحد أن يضاويه ويجاريه في ذلك، فقد كان سباقاً إلى المشاركة في محافل القرية أفرحاً وأتراحاً، وكُنّا نجده قد وصل القرية قبلنا وهو كهل نحيل الجسد. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

أعزي نفسي قبل كل إنسان، لأن رحيله كان فاجعة تركت غصة في حلقي وجُزناً عميقاً، فقد فقدت فيه الأب الحنون والمرشد والمربي والقُدوة المثلى في الخلق والتعامل الراقى، ولا أدري كيف ألجُ جامعة الخرطوم بعد أن أضحت خالية من تواجده الجغرافي والنفسي. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. كما أعزي أهلي وعشيرتي بحلة عباس مسقط الرأس خاصة، ومنطقة الحلاوين عامة، وكل الأهل بالخرطوم. كما أعزي الأسرة الجامعية قاطبة، فقد فقدوا زميلاً وأباً وأخاً طيباً المعشر. ولا يفوتني أن أعزي مجتمع الباحثين وأصدقاء مكتبة السودان في مشارق الأرض ومغاربها. فالعم عباس من البقية الباقية الذين قال فيهم محمد المكي إبراهيم: جيل العطاء المستجيش ضراوة ومصادمة.. المستميت على المبادئ مؤمناً.. المشرئب إلى النجوم لينتقي صدر السماء لشعبنا.

ألا رحم الله الفقيد وأحلّه عنده في مقعد صدق في جنات ونهر، وضاعف رضوانه عليه، وجعل مقيله في الفردوس الأعلى مع الحبيب الطيب صلى الله عليه وسلم. والحمد لله أولاً وأخراً.

قصيدة في رثاء الفقيد الأستاذ عباس الزين الطيب

طيب الله ثراه

د. محمد السر محمد علي الجعلي:

عن الليث الذي هجر العرينا
بمكتبة لها أضحى أمينا
بسيب المال عند البازلينا
فلم بخل ولم يلف ضنينا
عبوس في وجوه العابثينا
بالرعاية طلعتها دهرنا
له عند الشدائد حيث جينا
حضورا لم يقطبه الجبينا
وعند اليسر زاد العارفيننا
يفوق حديثه الدر الثميننا
وإن سيقته له الدنيا قطيننا
ونقص الكيل عبأه يقيننا
يعد صنيعه في العنق ديننا
مثل الحبس في قفص سجيننا
كما النخل الكريم يموت فينا
وإن خارت قواه فلن يلينا
وحال الناس أغنى السائلينا
بذا قد كان نعي القاطنيننا
فقد والله كنت بها قمينا
فسيف الحظر شج الوصل فينا
لفقدك عندنا لا خير فينا

أيًا قَمَمَ المعارفِ خبرينا
وفي السودان بصمته فخرنا
فقد ألف الخزانة مستعيناً
حفيماً كان يلقي زائريه
هو العباس لا كديراً ولكن
بمكتبة له كانت ملاذا تعهد
فلا والله ما لانت قناة
فإن تطلبه في شأن تجده صبوراً
أدهش الصبر احتمالاً
يكلّم لا يملّ له جليس
فلم يثبت لحب المال فضلاً
فزاد الكيل صاعن اعتزازاً
غدا يهب المشورة دون أجر
وعلمم بأنّ النسر يابى
وأثر أن يغادر طود عـز
بقامته امتشاقاً واعتدالاً
رحلت كما أتيت بلا ضجيج
حمامة مسجد في الحي تدعى
وتلك شهادة الأطهار فيكم
حُمنا أن نشيعك اضطراراً
فتلك محاسن إن لم نصغها